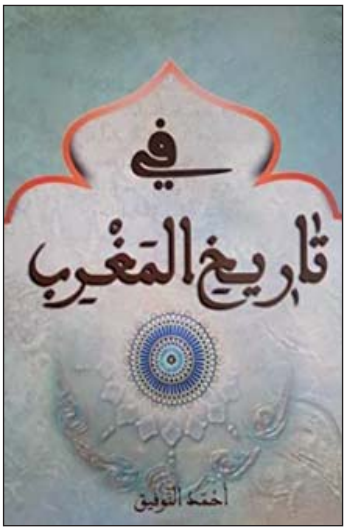

Aḥmed Toufiq.- *Fī tārīkh al-Maghrib*, (ad-dār al-baydā': maṭba'at an-najāḥ al-jadīda, 2019), 357 p.

أحمد التوفيق.- في تاريخ المغرب، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2019)، 357 ص.

يضم هذا الكتاب مجموعة من الأبحاث التاريخية أنجزها الباحث أحمد التوفيق على امتداد أربعة عقود، بعد أطروحته المنشورة بعنوان: **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان 1850-1914** في طبعتها الأولى سنة 1977، فشكلت وقتئذ منعطفا فارقا في الكتابة التاريخية المغربية. وتتناول هذه الأبحاث الخمسون – المتراوحة بين المقالة والترجمة والتقرير وتقديم كتب وندوات – قضايا من التاريخ المغربي الوسيط والحديث والمعاصر، فضلا عن إشكالات مرتبطة بمصطلحات لم تقع تجليتها بما فيه الكفاية من قبل الدراسات الحديثة. ويلمس القارئ في مجمل هذه الدراسات رغبة مؤلفها في تأصيل جملة من المفاهيم والوقائع بالوقوف على خلفياتها، وإبراز أسس الهوية المغربية في أبعادها التاريخية والثقافية والدينية وامتدادها البشري والحضاري خارج المغرب (السودان الغربي).

ولا شك أن إلمام المؤلف العميق بالتراث المغربي، قديمه وحديثه، وتجربته في مجال تحقيق هذا التراث المكتوب جعله في موقع يسمح له باستغلال مختلف أنواع المصادر التاريخية المغربية، فضلا عن تحرياته الميدانية، واستيعابه لنتائج الدراسات الأجنبية حول تاريخ المغرب. ويصعب في هذا الحيز الضيق استعراض جميع محتويات الكتاب الثريَّة ومناقشتها، وإنما نكتفي بالوقوف عند نماذج منها تعكس طبيعة المواضيع والإشكالات التي عالجها المؤلف. ويمكن تقسيم الأبحاث الخمسين الواردة في الكتاب إلى أربعة محاور أساسية، أولها إشكالية تحقيب تاريخ المغرب ومصادره؛ والثانية من الطبونيميا إلى التاريخ؛ والثالثة من البيوغرافيا إلى التاريخ؛ والرابعة إسلام وتصوف ورباطات.

وبخصوص النقطة الأولى، يناقش الكتاب في المباحث الأربع الأولى إشكاليات منهجية مرتبطة بتطور الكتابة التاريخية بالمغرب وبتحقيب تاريخه ومصادره ووثائقه، ويؤكد المؤلف أن الدارسين المعاصرين ممن حاولوا وضع معالم تحقيب لتاريخ المغرب

في القرن التاسع عشر اضطروا إلى التخلي – ولو بشكل نسبي – عن اتباع التقسيم القائم حسب عهود السلاطين، بل منهم من اقترح تواريخ في هذا القرن واعتبرها بداية تاريخ المغرب الحديث، وهي حدود تحقيبية تستند في الغالب إلى عنصرين هما العنصر الأثري والمقصود به هو الوثيقة، والعنصر التفسيري، ويتمثل في تقدير المؤرخ لأهمية وقائع معينة تبرر هذا الاقتراح، وقد يضاف عنصر ثالث هو العنصر الإجرائي أو البيداغوجي، أي ضرورة حصر البحث في حدود زمنية معينة. ويقدم المؤلف نماذج من ذلك تجسدها مقترحات كل من عبد الله العروي، وجرمان عياش، وأحمد التوفيق، ومحمد الهادي الشريف.

ويخصص المؤلف عددا من الدراسات لمصادر تاريخ المغرب قديما وحديثا، في الخزانات المغربية أو في دور الأرشيفات الأجنبية، مبرزا أهمية الوثائق الدفينة لمعالجة موضوع تجارة المغرب في القرن التاسع عشر. وفي هذا الصدد، يطرح المؤلف سؤالا محوريا: هل كانت هناك برجوازية جنينية أجهضها نظامُ الحماية؟ (31) وبعد أن يوضح معالم هوية وسمات ونشاط ودور هذه الفئة الوطنية التاجرة، وارتباطها بالمخزن، يخلص إلى أنها اندحرت بسبب التدخل الأجنبي والمنافسة التجارية الأجنبية (37).

ويظهر المؤلف تمرسه في تحليل الوثائق التاريخية واستخراج مكنوناتها، من خلال عددة بحوث يضمها هذا الكتاب، لا سيما في دراسته العميقة: "تأملات في البيعة الحفيظية" (47-63)، مبرزا بعد غوصه في تفاصيلها دور العلماء – كجماعة – في إضفاء المشروعية المعنوية بإشهادات كتابية أو إقرارات شفوية. وتبقى أهمية البيعة الحفيظية الفاسية في أنها "تؤلف مع ما سبقها أو مهد لها من وثائق أغنى ملف نتوفر عليه فيما يتعلق بممارسة العلماء لمهمة الإفتاء،" بل إن أهمية وثيقة البيعة تكمن كذلك في "اعتبار الوطنيين لها بيانات تمسك المغاربة بمبدأ الشورى، وبلورته في أوائل هذا القرن [العشرين] بلورة أكثر تحديدا من ذي قبل" (63).

ولا ريب في أن إسهام أحمد التوفيق في تجْلية عدد من القضايا المرتبطة بالطبونيميا المغربية يعد من المحاولات القيمة التي فتحت عددا من مستغلقات التاريخ المغربي؛ إذ يقر الباحث بأن الاستفادة من الطوبونيميا المعززة بوثائق أخرى من شأنه أن يبين حقائق مهمة عن قضايا تاريخية أساسية (118).

ويتساءل المؤلف عن أسباب عدم التفات العلماء المسلمين إلى الأصول المحلية لتفسير معاني أسماء الأمكنة المغربية، ويؤاخذ بعض الباحثين على ابتعادهم عن قاموس

اللغة المحلية، ويدعو إلى البحث في القواعد التي خضع لها نقل الأسماء المحلية إلى صيغ في سياق النسق العربي.

وفي دراساته التطبيقية التي خصصها للبحث في معنى أسماء: طنجة (119-127) ومراكش (129-133) وأسفي (135 -143)، يظهر باع الباحث أحمد التوفيق وقدرته على الغوص في أعماق اللغة المحلية (الأمازيغية) للإمساك بالدلالات الحقيقية لأسماء تلك المدن المغربية. ولا شك أن قارئ هذه الأبحاث الثلاثة سيكتشف في المؤلف مؤرخ اللغة الباحث في الأصول اللغوية لأسماء الأماكن، ومؤرخ المجتمع والحضارة والمجال، "لأن للبحث في الأصول اللغوية لأسماء الأماكن وما قد يترتب عن ضبط نطقها ومعناها فوائد محققة من جهة فقه اللغة، ومن جهة التاريخ والحضارة" (142). ويشبه تتبع المؤلف لجذور أسماء الأماكن المغربية واشتقاقها وتطورها بسعي العالم الجيولوجي لتفسير البنيات الرسوبية التي تعرضت لحركات باطنية شديدة.

ولم يكتف التوفيق في البحث في اشتقاق الأعلام الجغرافية ودلالاتها، وإنما أفرد حيزا لتوضيح دلالات جملة من المفاهيم والمصطلحات الحضارية المغربية وتتبع تطورها التاريخي؛ مثل الدراسة الطريفة التي خصصها لمفهوم ("الطّالب" في اللغة والاصطلاح بالمغرب) (173-182).

وتمثل المواد الستة والعشرون التي ساهم بها في معلمة المغرب – وكان من مؤسسيها بمعية المرحوم محمد حجي – ثلث عدد صفحات الكتاب (241-354)، وهي مواد تتراوح بين التعريف المقتضب ببعض الأعلام (إيغيل، بوعزة، الدمناتي الحسين، ابن أبي زرع، ابن زيدان عبد الرحمان) والمصطلحات والمفاهيم التاريخية (الأمناء، الإيالة، الدية، الرسم الفني، الزربية، السبحة، السيبة، الشيخ، أدْوال، أزواك، أسْدْرْمْ، أكليد،...)، وبين الدراسات والتقارير المطولة (الإقامة العامة، أگادير، الأمناء، التصوف، التعليم العالي، جامعة الأخوين، الجامعات التعليمية، الخزانة العامة والوثائق للحماية)، ولئن كانت بعض المعطيات في حاجة إلى تحيين (مثل مادة التعليم العالي، والجامعات التعليمية)، فإن القارئ لا بد وأن يلمس في هذه المداخل جدية العمل والجهد الأكاديمي الكبير الذي بذله المؤلف في محاولات البحث والمقارنات والتوثيق.

خصص المؤلف دراسات لبعض النصوص التاريخية ولمسارات مؤلفيها، (ابن جزي كاتب **رحلة ابن بطوطة** (81-90)؛ أبو الحسن علي بن سليمان البوجمعوي الدمنتي

ورسالته إلى آفاق الإسلام (203-224)؛ تقديم كتاب: **متنوعات محمد حجي** (225-234)؛ ابن زيدان عبد الرحمان (339-342). ولا يكتفي أحمد التوفيق بتتبع العناصر البيوغرافية المتعلقة بالمؤلفين والوقوف على مناهجهم ومصادر استيحائهم، وإنما يهتم بتفكيك نصوصهم من منظور الباحث التاريخي المنقب ليس فقط عن الأخبار والمعطيات التاريخية وإنما عن خلفيات التأليف وسياقاته التاريخية والحضارية والإيديولوجية، كما هو بارز من دراسات خصها لإبراز "العلاقات بين المغرب وإفريقية الغربية من خلال كتابيْ **تاريخ الفتاش وتاريخ السودان**" (101-109)، أو تلك التي تناول فيها كتاب **المعسول** للمختار السوسي (65-80) وكذا تلك الخاصة بكرامات الشيخ أبي يعزى من خلال كتاب **دعامة اليقين في زعامة المتقين للعزفي** (191-202).

ولا بد لقارئ هذا الكتاب من التوقف عند دراسة خصّها المؤلف لمناقشة مختلف الروايات المتعلقة بدخول الإسلام إلى المغرب الأقصى استنادا إلى نصوص تاريخية دفينة، تقدم رؤية مغايرة للأطروحة السائدة حول الموضوع. ومن خلال تحليله لعدد من النصوص، وخاصة لرواية ابن عبد الحليم صاحب **مفاخر البربر**، يخلص المؤلف إلى فرضية سمحت له بالإشارة إلى "انفتاح" المغرب الأقصى للإسلام، وتفنيد الأطروحة السائدة عن الفتح -أو الغزو- العربي لبلاد المغرب (91-99).

وفي مادة "التصوف" (277-286)، بين المؤلف مدى ارتباط التصوف بتجربة الإسلام الروحية، فبعد مرحلة الزهد والورع التي غلبت على أهل القرون الأربعة الأولى عرف التصوف المغربي نضجه وازدهاره في القرن السادس على الخصوص. وبعد استعراض الصعوبات التي تعترض البحث في التصوف بالمغرب، وتياراته والأدوار التي اضطلع بها في تاريخ المغرب، يخلص المؤلف إلى أن التصوف كان له - وما يزال - حضور قوي في النسيج الاجتماعي وفي الضمير الأخلاقي للمغاربة، بل إنه "من مقومات تاريخ المغرب الروحي والديني والثقافي والاجتماعي والسياسي بل والاقتصادي،" ومن عناصر الإشعاع المغربي في اتجاه الشرق والجنوب بل وحتى في اتجاه أوربا ذاتها (285).

وزامنت نشأة الرباطات بدورها مراحل انتشار الإسلام بالمغرب وارتبطت بها، ومن أشهرها رباط شاكر (سيدي شاكر حاليا) ورباط أسفي (من رباط شاكر إلى رباط أسفي (183-189). ويتناول المؤلف الوظائف المختلفة للرباطين مع أخذ السياق التاريخي لنشأتهما بعين الاعتبار وكذا المعطيات الجغرافية التي تحيل على شبكة العلاقات المحتملة بين المناطق المختلفة والمتكاملة. وأبانت مقارنة المؤلف بين رباط شاكر ورباط

أسفي أن تناول الموضوع لا بد أن يراعي "التطور القبلي المحلي والتطور السياسي المغربي ومراحل تغلغل الدعوة الإسلامية وأشكالها وما بين الحركة الصوفية في المغرب والمشرق من تأثير" (189).

ولا مندوحة من الإشارة إلى الأسلوب الشيق واللغة المتينة لهذه الدراسات التاريخية، والإشادة بالبعد الأدبي الإبداعي الذي تطفح به صفحات الكتاب، ويكفي أن نمثل لذلك بما جاء في بحثه المعنون بـ "على لسان المسجد الأعظم بسلا" (163-168)، وهو نص إبداعي تخيلي ممزوج بالمعطيات الموثقة تاريخيا. إننا أمام دراسات وأبحاث موحية، كتبها مؤرخ متمرس، وموحية لمن أراد الغوص في قضايا يحبل بها تاريخ المغرب وما تزال في حاجة إلى تنقيب أو مراجعة.

ذ. محمد الشريف
جامعة عبد المالك السعدي، تطوان